دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

كلمة ختام

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
أنا مصر عندى أحب وأجمل الأشياء
باحبها وهى مالكة الأرض شرق وغرب
وياحبها وهى مرمية جريحة حرب
باحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء
وأكرهها وألعن أبوها بعشق زى الداء
وأسيبها واطفش فى درب وتبقى هىّ فى درب
وتلتفت تلاقينى جنبها فى الكرب
والنبض ينفض عروقى بألف نغمة وضرب
على اسم مصر.

صلاح جاهين

obeikan.com

obeikan.com

ماذا بقى؟ وماذا أقول؟

هناك الكثير بالطبع وهو فوق طاقتى المحدودة.. ولكن.. لعلى أضيف إلى كل ما سبق.. أن هذا الكتاب كان مجرد محاولة للرد على سؤال أثار الحديث الذى احتدم حول دور مصر.. وبصرف النظر عن كل ما قيل ويقال، وبصرف النظر عن حقيقة النوايا وراء كل هذا، فإن هناك خلطا شديدا بين مفهوم الدور، وبين حركة هذا الدور، تحركاته واتجاهات هذه التحركات، هل انحرفت عن مسارها الصحيح والمتوقع؟! هل تراجعت؟! هل تعطلت؟! أو قل ما شئت من توصيفات!! وهناك خلط فى الحديث عن دور دولة ما، وبرؤية قاصرة إلى جانب واحد من جوانب حركة الدور، وسواء على مستوى الفعل السياسى، أو على مستوى التأثير الثقافى والاجتماعى، أو على مستوى القوة العسكرية والردع بها مثلا.. وهكذا.

وما يعنينى كان الفرق بين الحديث عن دور مصر ـ تحديدا ـ ودور أية دولة أخرى سواء كانت من دول المستوى الأول، أو دول المستوى الثالث النامى أو المتخلف، وما بينهما من دول صاعدة تريد أن تلحق بعالم الدول الكبرى.. فمصر كيان بالغ الخصوصية وبأحكام التاريخ والجغرافية والتى هى أعقد بكثير وأصعب من أن يتم التحلل منها، وهناك قواعد تأسيس للدور المصرى جعلت منه أشبه بالقدر المكتوب على مصر.. ثم أن مصر لا تستطيع أن تخرج من دائرة دورها؛ لأن هذا يعنى خروجها من دائرة التاريخ وحركته.. ولذلك فإن المواقف أو التحركات السياسية التى يراها البعض تعبيرا عن تراجع الدور المصرى، ليست دليلا على أن القصور فى الدور، وإنما فى إدارة حركة هذا الدور.. وإذا كانت هذه التحركات وردود الفعل قد تكشف فى ظاهرها ترهل أو تشتت الأفكار أو

تراجع المواقف، ولكنها بالضرورة لا تكشف القدرات الحقيقية للدور.

. . . . .

وكنت أريد أن ألفت الانتباه إلى أخطاء فى التقييم وحين نضع رد الفعل المصرى تجاه حدث ما، أو أزمة ما ـ وما أكثر الأزمات والقضايا فوق ساحتنا العربية ـ معيارا للحكم على دور مصر بمعناه الأشمل والأوسع!! والحاصل فإن رؤية صناع القرار قد تتأثر بما يحجب الرؤية السليمة ويحجب التقدير الصحيح للحسابات، وقد تتأثر هذه الرؤية بأمزجة ومصلحة الأنظمة الحاكمة.. ولكن الأنظمة سوف تذهب إلى ملفات التاريخ، والذى يبقى دائما هو دور مصر.. ثم أن ردود الفعل أو حركة الدور قد تكون وفقا لما هو متاح من القدرات والطاقات ـ وفى لحظة تاريخية ما ـ ولكن يظل دائما ذلك الإدراك العميق بجوهر الدور المصرى وأبعاده..

وعلى أية حال فقد سادت الأجواء العربية قناعة بأن حالة الغياب والتخلخل والانهيار عربيا، مرتبطة بمصر؛ لأنه لابد أن يكون هناك محور تدور حوله الحركة، ومع تراجع المحور عن أداء دوره، فإن هناك خلخلة فى أداء كل حركة داخل الإقليم العربى، وأن الأمل غالب على اليأس أن تنجح مصر فى أن تضع نفسها فى موضعها الصحيح تاريخيا وتؤدى دورها!! وهذه القناعة ورغم ما تستند إليه من أهمية دور المحور.. دور الدولة القائد فى المنطقة.. إلا أنها تحمل قدرا من مشاعر القلق، وربما الحيرة، حول غياب دور مصر.. الكل يلف ويدور حول غياب الدور، ودون تحديد لجوانب الغياب.. وفى حقيقة الأمر لا يستطيع أحد أن يقرر غياب الدور، ولكن يستطيع أن يطرح عدم اقتناعه بحركة هذا الدور وفقا

للظروف والتوازنات الإقليمية والمحلية.. ويبدو واضحا ـ مرة أخرى ـ عدم الوعى بأهمية الفرق بين جوهر الدور وأبعاده وقدراته، وبين إدارة حركة هذا الدور، وعدم الوعى هنا لم يخلق فقط سوء الفهم، ولكن خلق ما هو أسوأ، وهو التشكيك فى دور مصر، حتى تصورت دول عربية ـ بعينها ـ أنها يمكن أن تلعب هذا الدور، وهى لا تدرك ـ حتما ـ أنها لا تملك قواعد التأسيس والميراث الحضارى والإنسانى الذى جعل لدور مصر خصوصية متفردة..

وعموما.. أريد أن أكون منصفا مع الواقع ومع الحقيقة.

أن دور مصر الثقافى والاجتماعى لم يعد كما كان رائدا ومؤثرا وخالقا.. وأن هناك بالفعل حالة (غير طبيعية) تخيم على مجالات الإبداع المصرى، ولا تتسق مع تاريخ ومسار الدور المصرى، ومع حالة تجريف انحرفت بمصر من موقع الريادة والتنوير، إلى هوامش الإبداع الفكرى والفنى، وحين أتاح النظام لأنصاف المبدعين من الموالين وكتبة السلطة، أن يتصدروا القائمة، وأن يكون معيار التقييم والتقدير ـ ما يرونه معيار الصلاحية ـ وفقا للعلاقات الخاصة مع دوائر السلطة، والانتماء والولاء للنظام ومؤسساته الحاكمة، وقد عانت مصر طويلا، ومنذ منتصف السبعينيات، وعلى امتداد أكثر من ثلاثة عقود، من هذا التجريف داخل الساحة السياسية والثقافية.. وكانت النتيجة، هجرة المبدعين من أبناء مصر إلى العزلة داخليا، أو إلى خارج الوطن!! وهى حالة أجاد التعبير عنها العرض المسرحى "قهوة سادة" من خلال مشاهد متتالية وساخرة لحياتنا الحالية، تكشف عمق التغيير والتبديل الذى نتعرض له، والذى يستدعى شرب " قهوة سادة " حزنا على أشياء كثيرة ضاعت

وتضيع!! ويبدأ العرض بمجموعات تتوافد إلى مكان رملى وهم يحملون أشياء من الزمن المصرى الماضى، راديو ضخما، مطحنة بن، ساعة حائط، تحفة فضية، والكثير جدا من صور النجوم الراحلين فى كل ميادين العلم والأدب والفن المصرى، وبحزن يصل إلى حد البكاء يغرزون الأشياء والصور فى الرمل كما لو كانوا يدفنونها، ويستديرون كى يأتى آخرون يحملون صور العقاد، وطه حسين، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبدالوهاب، وأم كلثوم، وطلعت حرب، ومصطفى مشرفة، وليلى مراد، ومحمد فوزى، وعبدالحليم حافظ، فى مشهد مهيب يثير الشجن ويلفت الانتباه إلى أن العصر الذهبى المصرى للفن والأدب والعلم كاد أن يصبح فى خبر كان، ويطرح العرض المسرحى فكرة أن علينا أن نجدد مثله، وأن يكون لدينا طهطاوى جديد، وعبدالله النديم، والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل، وقاسم أمين، والمازنى، والمنفلوطى، وسلامة موسى، ولويس عوض، وصلاح جاهين، وكمال الطويل، وعبدالحليم حافظ.. وأن من يملك هذا التاريخ فى الفن والعلم والأدب والأخلاق يمكنه أن يملك الحاضر والمستقبل إذا أراد..

.....

.....

وهناك إضافة فوق ما تقدم.. وهى:

أن مصر ـ وفى ظروف طارئة ـ حاولت أن تشفق على نفسها من مسئوليات الدور، وهى رؤية طرحها فى منتصف السبعينيات ـ تقريبا ـ شاه إيران محمد رضا بهلوى على الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، ونصيحة الشاه ـ المشكوك فى نواياها ـ تقول بأن الصراعات فى المنطقة

العربية كلفت مصر أكثر مما تطيق، وأنه قد حان الوقت لكى تلتفت مصر لنفسها، وتنصرف إلى شئونهـا الخاصة!! وفى تلك السنوات انطلق شعار " مصر أولا " ودار الجدل خلالها حول عروبة مصر، وانتمائها العربى!!

وفى ظروف طارئـة ـ أيضا ـ امتـدت أكثر مـن ثلاثة عقـود، كانت مصالح النظام الحاكم، والتمهيد للتوريث، وليس المصالح الوطنية، وهى المحور الذى تقوم عليه السياسة الخـارجية لمصر، وقد اهتزت صورة الدور الخارجى لمـصر بشدة، وقـد أصبح التـعامل مع الـقضايا والأزمـات من موقف رد الفعل دون الفعل!!

. . . . . .

. . . . . .

وألخص ما أريد أن أقوله:

لابد أن تكـون الحقائـق واضحة.. وأولى الحـقائق: أن الجـغرافـية والتاريخ معـا، والتجارب والمواريث الحضارية لقـرون طويلة، فرضت أو حددت، دور مصر.. ولا يـمكن الرهان عليه، ولا يمكن اخـتصاره فى بعض جوانب حركـة هذا الدور.. والحقيقة الثانيـة: أن حركة ـور مصر قد تعتريـها ـ وفى ظرف ما ـ حالة رجوع إلى الداخـل وانكماش، تطفح عليهـا مظاهر الترهـل.. والحقيقة الـثالثة: أن الحديـث عن تراجع هذه الحركـة (وليس الدور بالطبـع) هو تفكيـر لا يأخذ فى تقـديره الأوضاع الداخلية التى أثقلت على حركة الدور ـ وفى ظروف طارئة أحيانا ـ ومنها قضايا التنمية الاقتصادية، وقضايا التطور الاجتماعى، وغيرها من القضايا الداخلية وحتى فى مجال الخدمات العادية.. وقوة مصر الداخلية تنعكس على مكانتها الخارجية، ووجود خلل فى الجبهة الداخلية يؤدى إلى تراجع

حركة الدور المصرى. . . وأثقلت على حركة الدور أيضا الأوضاع المتردية سياسيا داخل العالم العربى والذى تتزاحم فوقه الظلال والألوان، إلى جانب الأخطاء التى ترتكبها أطراف عربية.

وكان ذلك تأثير واقع الحال على حركة الدور، وربما ساعدت عليه عوامل إضافية. .

وأهمها ـ بل وأخطرها ـ حين تنتقل القيادة فى مصر، إلى رجال من حجم عادى، وكفاءة عادية، حينئذ تصبح رؤيتهم تحت أقدامهم!!

openkan.com